﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾

[القلم: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَغزى القِصَّة والمَثَل بالاتِّعاظ وأخذِ العِبَر

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى عذابَ أصحابِ الجنَّة، وما أصابَهم من حِرمانٍ في الدُّنيا وتلفٍ في الأموالِ والحَرْث بعدَ صُدورِ المعصيةِ منهم؛ ناسَبَ أنْ ينتقِلَ بالحديثِ إلى المُخاطَبين بالقرآنِ الكريم من أهلِ مكَّةَ ومَن جاءَ بعدَهم، واتَّصف بصِفاتهم، وتحلَّى بالجُحود والاستكبارِ والغُرور؛ منبِّهًا على شدَّةِ العذاب، ومُذكِّرًا بالعذابِ الأكبرِ بعدَ البَعثِ والنُّشور؛ وذلك هو المَغزى من ضَرب الأمثال، لمَن ينتفِعُ بالمَواعظ وسَدادِ الأقوال، في حين أرجعَ الرّازيُّ المناسبةَ لأحدِ احتمالين، فقال: "إنَّهُ تعالى قالَ: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، والمعنى: لأجْلِ أن أعْطاهُ المالَ والبَنينَ كَفَرَ باللّه، كَلّا، بَلِ اللّه تَعالَى إنَّما أعْطاهُ ذَلِكَ لِلابتِلاءِ، فَإذا صَرَفَهُ إلَى الكُفْرِ؛ دَمَّرَ اللّه عَلَيهِ، بدَليلِ أنَّ أصحابَ الجَنَّةِ لَمّا أتَوا بِهَذا القَدْرِ اليَسيرِ مِنَ المَعْصيَةِ دَمَّرَ اللّه عَلَى جَنَّتِهِم؛ فَكَيْفَ يَكونُ الحالُ في حَقِّ مَن عانَدَ الرَّسولَ، وأصَرَّ عَلَى الكُفْرِ والمَعْصيَةِ؟ والثّاني: أنَّ أصْحابَ الجَنَّةِ خَرَجوا؛ ليَنتفِعوا بالجَنَّةِ ويَمْنَعوا الفُقَراءَ عَنها، فَقَلَبَ اللّه عَلَيهِمُ القَضيَّةَ، فَكَذا أهْلُ مَكَّةَ لَمّا خَرَجوا إلَى بدرٍ؛ حَلَفوا على أن يَقْتُلوا مُحَمَّدًا وأصْحابَهُ، وإذا رَجَعوا إلى مَكَّةَ؛ طافوا بالكَعْبَةِ، وشَرِبوا الخُمورَ، فَأخْلَفَ اللّه ظَنَّهُم، فَقُتِلوا، وأُسِروا كَأهْلِ هَذِهِ الجَنَّةِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾: عذُبَ الماءُ عُذوبةً: ساغَ مَشرَبُهُ، فهو عَذْبٌ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 610.

واستعذبْتُهُ رأيتُهُ عَذْبًا، وعذَّبتُهُ تعذيبًا: عاقبْتُهُ، والاسمُ العَذاب، وأصلُهُ: الضَّربُ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ عُقوبةٍ مُؤلِمةٍ، واستُعيرَ للأمورِ الشّاقَّة[1]، والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديد، وقد عذَّبَهُ تعذيبًا، أكثرَ حبسَهُ في العَذاب، واختُلِفَ في أصلِه، فقيلَ: هو مِن قولِهم: عذَبَ الرَّجلُ؛ إذا تركَ المَأكَلَ والنَّوم، فالتَّعذيبُ في الأصل هو حملُ الإنسانِ أنْ يُعَذَّب، أي: يجوع، ويَسهَر، وقيلَ: أصلُهُ من العَذْبِ، فعذَّبتُهُ، أي: أزلتُ عَذْبَ حياتِهِ[2]، فهو في الأصلِ ما يُلائمُ الطَّبع، ويَقتضيهِ الحالُ، كما في الماءِ العَذْب، ومن البابِ العذابُ، والألفُ يدلُّ على الامتدادِ، ويُستعمَلُ في المكروهِ والعُقوبةِ الَّتي يَقتضيها حالُ الرَّجل[3]، والمرادُ بالأوَّل في الآيةِ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾: العذابُ الدُّنيويُّ بكلِّ ما يُؤلِمُ من فُقدانٍ وحِرمانٍ وجوعٍ وجَدْبٍ ومرَضٍ، وبالثّاني ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: العذابُ الأُخرويُّ، وهي جهنَّمُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّخويفُ بالعَذابينِ للفَوْزِ بالجنَّتينِ

أي: مثلُ ذلك العذابِ الَّذي بَلَونا به أهلَ مكَّة من الجَدْبِ الشَّديد، ومثلُ ما قصَّهُ اللّهُ علينا ممّا أصابَ أهلَ هذه الجنَّة عذابُ الدُّنيا، والكلامُ واردٌ لتحذيرِ أهلِ مكَّة، في أنَّ تمرُّدَهم هو بسببِ ما أوتوه من المالِ والبنينَ، وعقَّبَ بأنَّهم إذا لم يَشكُروا المُنعِمَ عليهم؛ يؤولُ حالُهم إلى حالِ أصحابِ الجنَّة؛ فإنَّ إنكارَ الحقِّ أوْلى بأن يُفضي بأهلِ مكَّة إلى البَوار والخُسران والعِقاب، ثمَّ ذكرَ عذابَهُم في الآخرة بأنَّه أعظمُ وأشدُّ وأشقُّ، وهو تحذيرٌ من العناد، ولو كانوا من أهلِ العِلْم؛ لعَلِموا أنَّه أكبرُ، ولأخذوا منهُ حِذْرَهُم.

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (عذب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن: 8/ 70.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾:

التَّهديدُ للمُشركين مَقصودٌ أساسيٌّ للنَّظمِ المُبين

استأنفَ النَّظمُ الكريم الجملةَ، من قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالةِ على تهديد المُشركينَ عندَ نهايةِ القصَّة والمثالِ المَسوقِ لقوم ابتُلوا بالنِّعمة، فاستكبروا، فحاقَ بهم العذابُ، ثمَّ تابوا، فتابَ اللّٰهُ عليهم، وحالُكم كحالِهم عندَ اللّٰه تعالى، فقدِ ابتُليتم بالأموالِ والبنينَ، فصَرَفتُموها إلى التَّكذيبِ غُرورًا بها واستكبارًا على اللّٰهِ تعالى، فإنَّ العذابَ يحيقُ بكم عاجلًا أم آجلًا، كما حاقَ بأولئكم، لكنَّهم تابوا، وأصلحوا، فهل أنتم تائبونَ مُصلِحون مثلَهم؟ قال ابن عاشور: "رُجوعٌ إلَى تَهديدِ المُشْرِكينَ المَبْدوءِ مِن قَوْلِه: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾، فالكَلامُ فَذْلَكَةٌ وخُلاصَةٌ لِما قَبْلَهُ، وهوَ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ"[1]، وظهرَ جليًّا أنَّ المقصود من القصَّةِ التَّرهيبُ أوَّلًا، والتَّرغيبُ بالتَّوبةِ ثانيًا، وأنَّ المقصودَ من هذه الخُلاصةِ مجرَّدُ التَّرهيبِ والتَّهديد.

مَعنى (الكافِ) والغرضُ منها في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

سَرَيانُ العَذاب المؤلِم بكلِّ هُدوءٍ وانسياب

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ (الكاف)، في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالة على التَّشبيهِ للعذابِ بمدلولِ المُشار إليه، وهو العذابُ أيضًا، أو جزئيٌّ من جزئيّاته، قال الحنبليُّ: "أي: مثلَ عذابِ أولئك ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾ الَّذي نُعذِّبُ به أهلَ مكَّةَ بالقتلِ والأسرِ والهزيمةِ في الدُّنيا؛ لشركِهم وكُفرِهم"[2]، بناءً على أنَّ مَرجِعَ اسمِ الإشارة عذابُ أصحابِ الجنَّة، والمقصودُ بـ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾ المشبَّه عذابُ أهلِ مكَّة، فوقعَتْ مغايرةٌ بينَ المشبَّه والمشبَّه به، فليس هذا من تشبيهِ الشَّيءِ بنفسِهِ المقصودِ به الكنايةُ عن عدمِ وجودِ مشبَّهٍ به يُشبِّهُ به إلّا نفسُهُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 89.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 132.

[البقرة: 143]، بل المرادُ تشبيهُ حقيقةِ العذابِ على أنَّ (أل) للجنسِ، أو حصَّةٍ من العذابِ على أنَّها عهدٌ ذهنيٌّ، أوِ العذاب الدُّنيويِّ على أنَّها عهدٌ علميٌّ، والمشبَّه به عذابُ أصحابِ الجنَّة، وما ترتَّبَ على ذلك العذابِ من تلَفٍ بالحَرثِ، وحِرمانٍ وتحسُّرٍ لأصحابِه، والغرضُ من التَّشبيهِ بتلك الصّورةِ الجزئيَّة تفخيمُ صورةِ العذابِ المُؤلِم السّاري بكلِّ هُدوءٍ وانسياب، فقد وقعَ لأصحابِ الجنَّة الَّذين تأكَّدوا بالتَّنعُّم بها مُنفردين، فصارتْ كالصَّريم، وهُم نائمونَ غافِلونَ، وقال ابن عاشور: هو من "التَّشبيهِ المُتعارَف؛ لِوُجودِ ما يَصْلُحُ لأن يكونَ مُشَبَّهًا بِهِ العذابُ، وهوَ كَوْنُ المُشَبَّهِ بِهِ غيرَ المُشَبَّهِ، والمُماثَلَةُ بَينَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ بِهِ مُماثَلَةٌ في النَّوْعِ، وإلّا فَإنَّ ما توُعِّدوا بِهِ مِنَ القَحْطِ أشَدُّ مِمّا أصابَ أصْحابَ الجَنَّةِ وأطْوَلُ"[1]، والمقصودُ بالمماثلةِ النَّوعيَّة نوعُ وجهِ الشَّبه، وهو نزولُ العذابِ خِلْسةً من دونِ شعورٍ به، وما يترتَّبُ عليهِ مِن التَّحسُّرِ الكامِل، ولذا قالَ الماتريديُّ: "كأنَّه يخاطبُ أهلَ مكَّة أنْ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ في الدُّنيا في أنْ يأخُذَ أهلَه، آمنَ ما كانوا، أوْ أغفلَ ما كانوا، كما أخذَ أصحابَ الجنَّةِ عندَ الأمن؛ إذ كان عندَهم أنَّهم يَقدِرونَ على صَرْمِ تلك الثِّمار، ولا يأخذُهُم"[2].

دلالةُ اسمِ الإشارة (ذلك):

شِـدَّةُ الـعَـذاب رادِعـــةٌ لـذَوي الألباب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن المشبَّهِ به بلفظِ اسم الإشارةِ (ذلك)، في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّفخيمِ من شأنِ ذلك المُشارِ إليه؛ إذ اسمُ الإشارة (ذلك) موضوعٌ للبعيدِ حسًّا، وأُريدَ به هنا البعيدُ مكانةً؛ لفخامتِه وصُعوبتِه وشدَّته، وعدمِ وجودِ شبيهٍ له بعذاباتِ النّاسِ المَعروفة؛ إذ نزلَ بالجنَّة، فجعلَها صَريمًا سَوداءَ مُحترقةً، بعدَ أنْ كانت نضيرةً مُثمِرةً بهيَّةً.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 149.

سرُّ إيرادِ (كافِ) الخطابِ في (ذلك):

مِحوريَّةُ الرَّسولِ في ضَرْبِ الأمثالِ وإيرادِ القَول

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بـ(الكاف)، بعدَ اسمِ الإشارةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالة على توجيهِ الكلامِ إلى مُخاطَبٍ بـ(الكافِ) الحرفيَّة الموضوعةِ للخطاب، وذلك المُخاطَبُ هو النَّبيُّ ﷺ[1]، والغرضُ من خطابِهِ تسليتُهُ وتطمينُه ﷺ بعدَ التَّكذيب الذي واجهَهُ، ورفعُ الحُزنِ عن قلبِهِ الشَّريف، والهمِّ عن نفسِهِ الطَّيّبةِ لتكذيبِهِم باللّه وآياتِهِ، وكان ذِكرُهُ في جملةِ تمامِ القصَّةِ بيانُ مِحوريَّته في ضربِ الأمثال للكفّار لعلَّهم يَحترزونَ بها عن الكُفر والإصرارِ على التَّكذيب.

تعيينُ مَرجعِ اسمِ الإشارةِ:

الاختلافُ في التَّعيينِ يوضِّح حقيقةَ التَّشبيه والتَّعريف

اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ المُحالِ عليه باسمِ الإشارة، في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾، فمنهم مَن قصَرَه على عذابِ أصحابِ الجنَّة، ومِنهم مَن جعلَهُ راجعًا إلى عذابِ أصحابِ الجنَّة وعذابِ أهلِ مكَّة، ورأى ابنُ عاشور أنَّه راجعٌ إلى مشارٍ إليه، هو العذابُ وما نجمَ عنهُ من آثار، فقال: "والمُشارُ إليه باسمِ الإشارَةِ هوَ ما تَضَمَّنَتْهُ القِصَّةُ مِنْ تَلَفِ جَنَّتِهم، وما أحَسّوا بِهِ عِندَ رُؤْيَتِها على تِلْكَ الحالَةِ، وتَنَدُّمِهِمْ وحَسْرَتِهِمْ، أي: مِثْلُ ذَلِكَ المَذْكورِ يَكونُ العَذابُ في الدُّنْيا"[2]، وهو أرجحُ الأقوالِ؛ لأنَّ المَرجعَ يعودُ إلى ما تقدَّمَهُ بأوصافِهِ وخصائصِهِ وما يتعلَّقُ به، ولدلالةِ السّياق الَّتي تُفيدُ تضخيمَ العذابِ وتفخيمَهُ، فيعودُ إليه وإلى كلِّ ما اتَّسمَ به مِن مواصفات.

دلالةُ تقديمِ الخبرِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

كلُّ عذابٍ وإيلام دونَ عذابِ الله اللّاحِقِ باللِّئام

قدَّمَ النَّظمُ الكريم الخبرَ - وهو المشبَّهُ به - على المبتدأ - وهو المشبَّهُ - في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيص

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 244.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 89.

والانحصار، أي: إنَّ حقيقةَ العذابِ؛ بناءً على أنَّ (أل) للجنس مثلُ ذلك العذابِ الجزئيِّ الذي نزلَ بأصحابِ الجنَّة وأهل مكَّة، لا مثلُ غيرِهِ مِن صوَرِ العذابات المَعروفة، أوْ مثلُ ذلك العذابِ الَّذي نزل بأهلِ الجنَّةِ عذابُ أهلِ مكَّة؛ بناءً على أنَّ (أل) للعهدِ، وأنَّ المشارَ إليه خصوصُ عذابِ أهلِ الجنَّة، ولا يَخفى على هذا التَّوجيهِ للمَرجِعَين ضعفُ إرادةِ الحَصْر؛ لأنَّ التَّقديمَ دالٌّ على أنَّ كلَّ عذابٍ وإيلامٍ لا يُشبِهُ عذابَ اللّه من جهةِ كمالِهِ وتمامِهِ وحِكمتِهِ ودقَّتِهِ وجلالِهِ، قال الهرريُّ: "خبرٌ مقدَّمٌ لإفادةِ القَصْرِ"[1]، في حين جعلَ ابنُ عاشور التَّقديمَ لمُجرَّد الاهتمام دونَ القصر، فقال: "تَقديمُ المُسْنَدِ لِلاهتمامِ بإحْضارِ صورَتِهِ في ذِهْنِ السّامِعِ"[2]، وهو توجيهٌ يمكنُ أنْ يُضاف لدلالةِ القصرِ لكنْ لا يلغيها.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا على الجنسِ والحَقيقة، والغرضُ من التَّعريفِ بيانُ الكمالِ لذلك العَذاب، حتّى إنَّه صارَ عينَ الماهيَّة من كمالِه، وانحصَرَ في ذلك الجُزئيِّ من عذاب أهل الجنَّة الذي حلَّ بالمنعَّمين، فحوَّلَهم في بُرهةٍ من الزَّمان إلى بائسينَ مَحرومينَ مُتلاومينَ مُعترفينَ راجينَ للتَّوبة، ودلالةُ القصرِ النّاشئةُ من التَّقديم تدلُّ عليه؛ إذ تُصوَّرُ الحقيقةُ، وتمثَّلُ بالمثالِ الجزئيِّ، وتُقصَرُ على مثالِهِ دونَ بقيَّةِ صورِ العذاباتِ المعهودةِ البشريَّةِ النّاقصة، وقريبٌ من هذا ما ذهبَ إليه ابنُ عاشور بقوله: "والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡعَذَابُۖ﴾ تَعْريفُ الجِنْسِ، وفيه تَوجيهٌ بالعَهْدِ الذِّهنيِّ، أي: عَذابُكُمُ المَوْعِدُ مِثْلُ عَذابِ أولَئِكَ، والمُماثَلَةُ في إتلافِ الأرْزاقِ والإصابَةِ بِقَطْعِ الثَّمَراتِ"[3]، وإمّا للعَهْد العلْميِّ بينَ المُتخاطبين: "أي: مثلُ ذلك العذابِ الَّذي بلوْنا به أهلَ مكَّة وأصحابَ الجنَّة المذكورة العذاب، أي: عذابُ الدُّنيا النّازلُ فيها على مَن طَغَى بمنعِ حُقوقِ اللّه تعالى"[4]، فجُعِلَ المشارُ إليه مثالين جزئيَّين، والمشبَّهُ هو عذابُ الدُّنيا المعهود تمييزًا له عن عذابِ الآخرة، وجعلَ أبو حيّان عذابَ أهلِ الجنَّة هو

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 98.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 89.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 89.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 592، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 99.

مدلولُ (ذلك)، و(أل) عهديَّة في عذابِ أهلِ مكَّة[1]، ودلالةُ القصرِ في الثّاني أوضحُ منها في الثّالث، كما تضعفُ الثّالثَ دلالةُ المقابلةِ في قولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ﴾، ولعلَّ دلالةَ المقابلة جعلتَهُم يذهبونَ إلى أنَّ (أل) للعهد فيه، كما صرح به ابنُ عاشور بقولِه: "وقَولُهُ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ دالٌّ على أنَّ المُرادَ بقَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ عَذابُ الدُّنيا"[2]، لكنْ عند تأمُّل المقابلة بينَ العذابين؛ فإنَّ التَّفاوتَ بالأكبريَّةِ دونَ الحقيقةِ.

كمالُ الحقيقة مُبينٌ عن جَسامةِ المُصيبَة

نُكتَةُ الوصلِ في ﴿وَلَعَذَابُ﴾:

عطفَ النَّظم الكريمُ الجملة الاسميَّةَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ على ما قبلَها بـ(الواو)؛ للدَّلالة على أنَّ هذا العذابَ بكمالِه وجلالِه شيءٌ صغيرٌ من عذابِ جهنَّمَ في الآخرة، فيندفِعُ توهُّم مَن يعتقدُ بانحصارِ العَذاب في مثلِ تلك المُصيبةِ، فيَهونُ عليه تصوُّرُ كمالِ العذاب في الآخِرة، فأوضحَ النَّظمُ أنَّ هذا الكمالَ في العذابِ شيءٌ حقيرٌ من ذلك العذابِ في الآخرة، وبينَ الجُملتَين اتِّحادٌ ذاتيٌّ، فالجامعُ بينَهُما عقليٌّ، أوْ أنَّ (الواو) للاستئناف[3]؛ إذِ انتهَت قصَّةُ المَثَلِ به، ثمَّ استأنفَ بذِكرِ العذابِ الأكبر لمَنْ لم يَتُب، ويَرجِعْ عن ظُلمِه واستكبارِه وتكذيبِه، قال الرّازيُّ: "وهاهنا تَمَّ الكَلامُ في قِصَّةِ أصْحابِ الجَنَّة"[4].

رفعُ التَّوهُّم عمَّن أرادَ حُسْنَ التَّفهُّم

مَعنى (اللّام) في ﴿وَلَعَذَابُ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(اللّام) في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ﴾؛ للدَّلالة على التَّوكيدِ؛ فاللّامُ هي لامُ الابتداءِ دالَّةٌ على توكيدِ الحُكم وتقريرِه في ذهنِ السّامع، فيكونُ ردًّا على مَن يُشكِّكُ

تأكيدُ نسبةِ الكلام للرَّدِّ على مُنكِرِ الأحكام

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 244.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 591.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 610.

في شدَّةِ العذابِ الإلهيِّ، أوْ يَراهُ هيّنًا لهجومِهِ على المَعاصي، فهو وإنْ لم يَهُنِ العذابُ عندهُ، لكنَّه بهُجومِهِ على المعاصي كانَ كالهيِّن عليه، ففيه تنزيلُ غيرِ المُنكِر منزلةَ المُنكِر.

سرُّ تكرار لفظ (العذاب):

عــذابُ الآخِــرة بــلاءٌ وشنــاعــةٌ ظاهِرة

كرَّرَ النَّظمُ الكريم لفظَ (العَذاب)، في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للدَّلالة على المُباينةِ بينَ العَذابين في الحقيقةِ والوَصف، **فالأوَّلُ**: هو العذابُ الدُّنيويُّ الكاملُ الحقيقةِ والماهيَّة، **والثّاني**: هو العذابُ الأُخرويُّ الأكبرُ منه، فإن كان الدُّنيويُّ عظيمًا؛ فما بالُك بالأعظم؟ كما أنَّ المشتركَ بينَ أصحابِ الجنَّة وأهلِ مكَّة في العذابِ الأدنى، وانفردَ أهلُ مكَّة بالعذابِ الأكبر؛ لأنَّهم لم يَرتدِعوا، ولم يُؤمنوا، ولم يتوبوا، كما فعلَ أصحابُ الجنَّة، قال الهرريُّ: "وهكذا عذابُ مَن خالفَ أمرَ الله تعالى، وبخِلَ بما آتاهُ الله، وأنعَمَ به عليه، ومنعَ حقَّ البائسِ الفقير، وإذا كانت هذهِ حالَ مَن فعلَ الذَّنبَ اليسير كأصحابِ الجنَّة، فما بالُكُم بذنبِ مَن يُعانِدُ الرَّسول، ويُصِرُّ على الكُفر والمَعصية؟"[1].

دلالةُ الإضافةِ في (عَذاب الآخِرة):

الإضـافـةُ لـدارِ الـكَـمـال مُنبئةٌ عـن عــذابِ بِلا زَوال

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (العذاب) إلى لفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للدَّلالة على تعريفِ العذابِ وتعيينِه؛ إذ يكتسبُ المضافُ من المضافِ إليه التَّعريفَ والتَّعيين، ولمّا كانت الآخرةُ الدّارَ الحقَّ الّتي فيها الكمالُ وعدمُ النُّقصان؛ كانتِ الإضافةُ إليها مُنبئةً عن كمالِ العَذاب وشدَّتِه وعظمتِهِ التّامَّة.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

تـعـريـفُ الآخِـرة للدَّلالة على أنَّها الحياةُ الحقيقيَّةُ الدّائمة

عرَّف النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للدَّلالة على العهدِ المَعلومِ في الحياةِ الّتي تقابلُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 99.

الحياةَ الدُّنيا، وصارتْ مثلَ العلَم في الدَّلالةِ على الحياةِ الكاملة الخالِدةِ، نَعيمًا أو شَقاءً، وأنَّها حياةُ الجَزاء بلا عمَل، ونيلُ الحقوق والاقتصاصِ منَ الظّالمين، وتنعيمُ الطّائعين، فتكون الإضافةُ إليها نَعيمًا أو عَذابًا؛ للدَّلالة على الدَّوام والخُلودِ معَ الجَلال والكَمال.

دلالةُ اسمِ التَّفضيلِ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم عن الخبرِ باسمِ التَّفضيلِ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عذابَ الدُّنيا - وإنْ كان كبيرًا جَليلًا - لا يُشبِهُ عذاباتِ الدُّنيا المَعلومة؛ إلّا أنَّ عذابَ الآخرة أكبرُ منهُ، وحذفَ النَّظمُ الجارَّ والمجرور (منه)؛ لكونِهِ مَعلومًا من السّياق، والغرضُ من الحذفِ بيانُ أنَّ كِبرَ ذلك العَذاب يمتدُّ من عذابِ الدُّنيا الكبيرِ إلى ما لا نهايةَ له في التَّوسُّعِ والامتداد.

العذابُ الأكبَر لمَن صمَّمَ على الجُحودِ وأنكَر

سرُّ الاستعارةِ في لفظِ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾:

استعارَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ عندَ الإخبارِ عنِ العذابِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ إذ شبَّه النَّظمُ العذابَ بجسمٍ يمتدُّ مقدارُهُ، ويتوسَّعُ حجمُهُ، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ به، وأبقَى لفظَ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ دالًّا عليه، فالاستعارة مكنيَّةٌ، أوْ أنَّه شبَّهَ العظَمةَ بالكِبَر بجامعِ العرضيَّةِ في كلٍّ من الكَيف والكمِّ، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقَى المشبَّهَ به، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، والغرضُ منهما تصويرُ امتدادِ العَذابِ وتوسُّعِهِ وعدمِ انحصارِهِ بمقدارٍ ثابتٍ.

زيادةُ المِقدارِ تُنبئُ عن سيّئ العذابِ وجَليلِ الأخطار

نُكتَةُ الفصلِ في جُملة ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾:

فصلَ النَّظمُ الكريم الجملةَ من قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ عمّا قبلَها؛ لكَونِها استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الجملةِ السّابقة؛ إذ ذلك الوعيدُ بالعذابِ الدُّنيويِّ وبالعذابِ الأكبر يومَ النُّشور يُثيرُ في نفوسِ السّامعين سؤالًا مفادُهُ: كيفَ لا يَرتدعونَ عن التَّكذيبِ، ويَبقَونَ على الكفرِ مع ذلك التَّهديدِ والتَّخويف؟ فتقعُ جملةُ: ﴿لَوۡ كَانُواْ

التَّوضيحُ والبيان لإزالةِ الإبهام وتحقيقِ الإفهام

﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ بيانًا لذلك الاستبهامِ في نفوسِ السّامعين، وقيل: إنَّها استئنافيَّةٌ ابتدائيَّةٌ[1].

مَعنى ﴿لَوْ﴾ والغرضُ مِنها:

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ﴿لَوْ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على امتناعِ جوابِها لامتناعِ شَرْطِها، فهي حرفٌ لما سيقعُ لوقوعِ غيره، لكنَّه لا يقَعُ، فيكونُ التَّعبيرُ بها مُقتضيًا لنفيِ العِلْم وامتناعِ تحقُّقِهِ فيهم، أي: امتنعَ ارتداعُهُم بما نُخوِّفُهم به من العذابِ لعدمِ علمِهم واعتقادِهم وتصديقِهم، وهذا: "نَعيٌ عليهم بالغَفلة، وأنَّهم ليسوا من أربابِ النُّهى والمَعرفة"[2].

امتناعُ الارتداعِ لامتناعِ التَّصديقِ والإيقاع

دلالةُ الفعلِ النّاقِصِ (كانَ):

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ النّاقص شرْطًا لـ﴿لَوْ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ دونَ القولِ: (لو علموا)؛ للدَّلالة على تمكُّنِ امتناعِ العِلْم منهم، واستقرارِ الاتِّصاف بانتفاءِ العلْم وثُبوتِهِ لهم على سبيلِ التَّحقُّقِ والوُجود، فهُم لم يَرتَدِعوا عن التَّكذيب؛ بسببِ انتفاءِ وجودِ العلْم واستقرارِهِ فيهم، وذلك أبلغُ في إثباتِ الجهالةِ المستقرَّة الَّتي دَعتْهُم إلى عدمِ الارتداعِ والخَوف.

امتناعُ تمكُّنِ العِلْمِ أبلَغُ في تحقُّقِ الجهلِ والوَهْم

دلالةُ تكرارِ ضميرِ (الواو) في ﴿كَانُواْ﴾، ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

كرَّرَ النَّظمُ الكريم ضميرَ الجمعِ الغائبِ (الواو)، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ امتناعِ العلْم وثبوتِهِ منهم على سبيلِ الاجتماعِ والتَّوافُق، فقد انتفَى عنهم العلمُ ووجودُهُ فيهم جميعًا، ومن ثَمَّ لن يَرتدِعوا بالتَّخويفِ وآياتِ العذاب وما حلَّ بالأُمَم السّالفة من نزولِ ألوانِ العَذابِ بهم، قال ابن عاشور: "وَهُمُ المُشْركونَ، فَإنَّهُم كانوا يُنكِرونَ عَذابَ الآخِرَةِ، فَهُدِّدوا بِعَذابِ الدُّنيا"[3].

انتفاءُ العلْمِ وُجودًا ثابتٌ للجميعِ اتِّفاقًا

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 125.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 90.

دلالة الفعل المضارع ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

انتفاءُ التَّصديقِ والإذعان لتعلُّق العلْم المُنتفي بالنِّسَبِ والأحكام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارع ﴿يَعْلَمُونَ﴾، المُمتَنِع تحقُّقُه، والثّابتِ انتفاؤُهُ، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على امتناعِ تحقُّقِ العِلْم ووجودِهِ فيهم على سبيلِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ التَّكراريِّ، ولمّا كان امتناعُ تحقُّقِ العلْمِ فيهم بالعذاب؛ فإنَّ العلْمَ المنفيَّ عنهم بمعنى التَّصديقِ والاعتقاد، فيكونُ التَّقدير: (لم يَرتدِعوا لامتناعِ تحقُّقِ التَّصديقِ بوجودِ العذاب الأكبر).

دلالةُ حذفِ المفعولِ لـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

امتناعُ العلْم بالغَيب قادَهُم إلى كلِّ رَيب

حذفَ النَّظمُ الكريم مفعولَ ﴿يَعْلَمُونَ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، أي: العذابَ الأكبرَ ووجودَه وثبوتَه؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه من التَّكذيبِ والإنكارِ لفَحوى التَّخويفِ بالعذاب والاستهزاءِ بذلك التَّخويف، ولا يبعُدُ كونُ الفعلِ مُرادًا به اللُّزوم، فلا يحتاجُ لتقديرِ المفعول، أي: لو كانَ لهم عِلمٌ أصلًا؛ لثبتَ ارتداعُهم، لكنَّه لم يثبتْ، وذلك أبلغُ؛ لامتناعِ أصلِ العلْم فيهم، ولذا قالَ الإيجيُّ: "أو لو كانوا مِن أهلِ العلْم؛ لعَلِموا أنَّ عذابَ الآخرة أشدُّ"[1].

دلالةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ لـ ﴿لَوْ﴾:

الاستغناءُ بالدَّليل عن ذِكرِ كلِّ عناصِرِ التَّكوين

كما حذفَ النَّظمُ الكريم مفعولَ (العلْم) للعلْم به من السّياقِ؛ حذفَ جوابَ الشَّرط في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، والتَّقديرُ: لو كانوا يعلمونَ أنَّ عذابَ الآخرةِ أكبرُ؛ لارتدَعوا عن ذلك التَّكذيبِ، وكفّوا عن ذلكَ الإنكارِ، أو لاحتَرزوا عمّا يُؤدّيهم إليه[2]، لكنَّهم لم يَعلموا، قال الهرريُّ: "وجوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه سياقُ الكلام، تقديره: (لو كانوا يعلمونَ أنَّه أكبرُ؛ لما فرَطَ منهُم ما سلَفَ من ظُلمٍ وإحجامٍ عن الاستثناءِ)"[3].

(1) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 4/ 355.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 132.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 30/ 125.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العذابُ والعِقاب:

يُطلَق (العقابُ) على العذابِ المُستعجَلِ الَّذي يكونُ في نهايةِ الفعلِ، على أنَّه جزاءٌ سريعٌ لذلكَ العمَل، فهو من العَقِبِ الَّذي يكونُ خلْفَ الشَّيءِ وتوابعِهِ، ويأتي بعدَه، بخلافِ (العَذاب)، فإنَّه يكونُ على الإيلامِ المُتعجِّلِ والمُتأخِّر، ويكونُ خلفَ الفعلِ بسُرعة ومُتأخِّرًا عنه، ومن ثَمَّ فإنَّ العذابَ هو أعمُّ مطلقًا من العِقاب.

العقابُ أخصُّ من العَذاب مُطلقًا

الكبيرُ والعَظيم:

قد يجتمعُ العظيمُ والكبيرُ في شيءٍ واحد، فيكونُ كبيرًا باعتبارِ مِقدارِهِ وحجمِهِ، وعَظيمًا باعتبارِ نوعِهِ وقيمتِهِ، وقد ينفردُ الكبيرُ في الشَّيءِ الكبيرِ الحَجم الكثيرِ الأجزاء، لكنَّه بلا قيمةٍ ومكانةٍ، وقد ينفردُ العظيمُ في الصَّغير المقدارِ، لكنَّه عظيمُ القيمةِ والاعتبار، فالعلاقةُ بينهما العمومُ والخصوصُ الوجهيُّ.

العلاقةُ بينَهُما العُمومُ والخُصوصُ الوجهيُّ

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"